

## ملاحظات حول

# الفهم الفلسفية للأيديولوجيا

رشيد مسعود

يشكل التعريف احدى اعقد المضلات في مضمار العلوم الانسانية. فالعلوم الطبيعية، المسماة علوماً دقيقة، غالباً ما تخلص من التعريفات اللغوية، بفضل النطق الشكلي، إذ تستبدل الكلمات برموز اصطلاحية، تكون محددة المعالم، محصورة الدلالة. أما التعريف بواسطة الكلمات فيكتنفه، دائماً، اطار واسع من المدلولات المتداخلة، المتواقة حيناً، والمتنافرة حيناً آخر، الامر الذي يقود الى الالتباس، وبالتالي الى الاهام.

صحيح ان التعريفات المنطقية الشكلية، اي استعمال الرموز الاصطلاحية، تستخدم في العلوم الانسانية اكثر فأكثر، لكنها، في الواقع، تقصر على الجوانب المكممة منها، وتقتصر عن الاحاطة بالجوانب السياسية والقيمية والثقافية التي تستلزم تعريفات لغوية متداخلة المرامي، الامر الذي يجعل عملية التعريف، في هذا المضمار، تعددية، وبالتالي تقريرية. عند التعمق في تأويل هذه الظاهرة يتبيّن انها تعود الى سببين، الاول عرضي والثاني جوهري:

- السبب العرضي لهذه الواقعة التعددية هو كون هذا التعريف لغويًا، أي مصوغاً بكلمات، ولا يُخفى ما للكلمات من مفاهيم متباعدة.
- السبب الجوهري هو منظورية المفاهيم في المضمار الانساني. وللتوضيح نذكر بأن المنظورية، كما عرّفها نيتشه، تعني أن:

«كل معرفة هي نسبية بالنظر الى حاجات الحياة لدى الانسان العارف»<sup>(١)</sup> أي أنها تعبر عن وجهة

نظر، لا عن الحقيقة في ذاتها، وبتعبير آخر نقول إن الحقيقة، في مضمون العلوم الإنسانية، هي حقيقة ارادية، خيارية، ذاتية لا استنتاجية.

تتمثل الأيديولوجيا أحد مفاهيم هذا النوع من المسائل المعرفية، لذلك نرى أن أفضل طريقة لبلوغ القدر الممكن من الموضوعية في فهم ماهية الأيديولوجيا، أن لم نقل الطريقة الوحيدة المتاحة، تقوم على استعراض التعريفات المتباعدة التي أعطيت عنها، أو أهم هذه التعريفات، ومن ثم محاولة استخلاص مفهوم جامع منها مبني على أساس اعتبارها وظيفة وسائلية؛ أي أنها تخلّي، منذ الآن، عن مطمح الموضوعية المطلقة حيال هذه المسألة، قائمين بالمنحى الذاتي لما يتمتع به من جدوى استعمالية. واستدركاكاً نلتف النظر إلى أن اشتراط الموضوعية في مسائل كهذه يعني الاستسلام للوهم العلموي أكثر مما يؤلف ضمانة معرفية.

### الإيديولوجيا بمعناها الأصلي:

إذا ما عدنا إلى المدلول اللغوي الاستباقي لكلمة إيديولوجيا ذات الأصل اليوناني (*idea* = فكرة، *Logos* = علم) ألمينا أنها تعني علم الأفكار. ومبتكراً لفظة إيديولوجيا هو الفرنسي دوترواسي (1754 - 1836)، وقد وردت اللفظة، أول ما وردت، في كتابه (مذكرة حول ملكة التفكير)، ثم تكرّس استعمالها، بالمعنى الذي اعطتها إياه، في كتابه الآخر (مشروع عناصر الإيديولوجيا). تعني هذه الكلمة عنه:

«العلم الذي يدرس الأفكار، بالمعنى الواسع لكلمة أفكار، أي محل واقعات الوعي من حيث صفاتها وقوانينها وعلاقتها بالعالم التي تثلها، لا سيما أصلها»<sup>(٢)</sup>.

لقد قصد دوترواسي، من وراء اعتقاد هذه اللفظة المركبة من عناصر مأخوذتين من لغة قديمة، الاستفادة عن استعمال تعبير «علم نفس» الذي ينطوي على مفهوم «النفس» ذي المدلول الروحي الديني الذي أراد تحجيمه ابتعاده للعقلانية. ولقد قال بهذا المعنى:

«ثمة علمان ليسا مختلفين فحسب، بل متعارضان، يبالغ بعض الناس في الاصرار على الخلط بينهما، أعني الميتافيزيقا اللاهوتية القديمة، أو الميتافيزيقا بالمعنى الحقيقي للكلمة، والميتافيزيقا الفلسفية الحديثة، أو الإيديولوجيا».

يعتبر الفيلسوف الفرنسي مان دو بيران (1766 - 1824) من أتباع مدرسة الإيديولوجيين، على غرار دو تراسى، إذ أن المفهوم الذي يضمّنه كلمة إيديولوجيا مشابه للمفهوم الذي ربطه بها دوترواسي. قال دو بيران بخصوص الإيديولوجيا:

«خلق الايديولوجيا، اذا جاز التعبير، في اجزاء العلوم كافة. لأن العلوم لا تتألف الا من أفكارنا من مختلف علاقات هذه الافكار. تشكل هذه الافكار ما يشبه بلاداً شاسعة، متنوعة الى ما لا نهاية، وعجزة الى عدد كبير من المناطق، يتخللها عدد وفير من طرق المواصلات (...)، لكن جميع هذه الطرق لها اصل واحد، بل إن غالبيتها تنطلق من نقطة مشتركة، ومن ثم تبتعد. إن هذا الاصل، او هذه النقاط المشتركة التي يجهلها المسافرون عادة، هي التي يتولى عالم الايديولوجيا، كمهمة اولى له، ان يدفهم عليها»<sup>(٣)</sup>.

### الايديولوجيا بمفهوم المذهب الاجتماعي الدوركاهمي:

ظلّ مفهوم الايديولوجيا يراوح ضمن اطار «مذهب الايديولوجيين» المذكور زهاء نصف قرن تقريباً، حتى جاء العالم الاجتماعي الفرنسي اميل دوركاهم (١٨٥٨ - ١٩١٧) وأنثأ نظرية تقول بأن الواقعات الذهنية ترجع الى الواقعات الاجتماعية، معتبراً هذه الأخيرة مستقلة عن وعي الافراد. يصف دوركاهم، على ضوء هذه النظرية، نشوء الحالات الايديولوجية وتكونها بقوله:

«بدل ملاحظة الاشياء ووصفها ومقارنتها، نكتفي، اذ ذاك، بوعي افكارنا وتحليلها وتأليفها ببعضها الى البعض الآخر، أي عوضاً عن إنشاء علم يتناول الحقائق الواقعية، لا نمود نصوغ سوى علم ايديولوجي»<sup>(٤)</sup>.

نستخلص من الاستشهادات المذكورة آنفاً المعنى الفلسفى الذي أُعطي لكلمة ايديولوجيا خلال المرحلة الثانية من تاريخها، ومفاده ان المحتوى الايديولوجي هو عملية الفهم المستندة الى الأفكار، هو اليقين القائم على أفكار كقاعدة له، ونضرب مثلاً على هذا المفهوم البرهان الايديولوجي على وجود الله، أي الانتقال من فكرة كائن أعلى تام الكمال الى تقرير وجود هذا الكائن الأعلى.

وبتعبير آخر يصح القول أن لفظة ايديولوجيا كان يقصد بها، في المرحلة الثانية من تاريخها، التحليل، او النقاش القائم على أفكار مجردة لا تطبق على أمور واقعية.

### الفهم الماركسي للايديولوجيا

في المرحلة الثالثة من تاريخها اتخذت الكلمة ايديولوجيا معنى سياسياً اجتماعياً صرفاً، - وأصبح استعمالها يقتصر عليه. وفي هذا المجال تعني اللفظة:

«مجموعة من الافكار، أو المعتقدات، او الآراء، المتৎقة الى حد ما، والتي تعتبرها فئة اجتماعية معينة، أو حزب سياسي معين، بثابة ما يقتضيه العقل، مع أن نابضها الفعلي يمكن في حاجة تبرير مشروعات معدة لتلبية اتواقي منفعية. غالباً ما تستعمل هذه الحاجة لأهداف دعائية»<sup>(٥)</sup>.

---

تمثل الايديولوجيا، بهذا المفهوم:

«فكرةً نظرياً يعتقد أنه يتضمن بطريقة تجريدية تعتمد على معطياته الخاصة وحدها، مع أن هذا الفكر، في الحقيقة، ليس سوى تعبير عن واقعات اجتماعية، ولا سيما اقتصادية، لا يعيها أصحاب الايديولوجيا، أو على الأقل لا يدركون أن هذه الواقعات هي التي تقرر مضمون أفكارهم. هذا المفهوم للإيديولوجيا، المتحدر من زمن سابق، نلقاء شائعاً جداً في الأدب الماركسي»<sup>(٦)</sup> لقد ظهر هذا المفهوم عند أخصام الإيديولوجيا، لأن هذه الأخيرة، في نظرهم، تعني التحليلات والشروحات والمناقشات الدائرة حول:

«أفكار جوفاء، وتصورات مجردة، دون أية علاقة بالأحداث وبالواقع الموضوعي»<sup>(٧)</sup>. لذلك يقال عنها فلسفة مبهمة وضبابية، وغالباً ما تستوحى المثالية الساذجة.

نصل هكذا إلى المعنى الثالث لكلمة إيديولوجيا، وهو المعنى الذي انتشر عنها في أواخر القرن التاسع عشر نتيجة انتشار الأفكار الماركسية. فالماركسيّة هي أول من أسعف على كلمة إيديولوجيا المعنى الازدرائي القائل بأنها:

«وعي زائف، وتنكر للواقع، ومقالة تبريرية للأحوال الاجتماعية السائدة».

ان الماركسيّة، بتوحيدها بين معنى وعي الواقع الاجتماعي المعاش وبين فكرة الخداع، تعني ان الناس محكوم عليهم بأن يعيشوا في الوهم، طالما ظلوا آخرين بالإيديولوجيات.

تتوافق الماركسيّة هكذا مع «الضربيات التأديبية التي أُنزلت بالنرجسية الإنسانية»، على حد قول فرويد، والتي تثلّت: أولاً باكتشافات داروين العلمية التي سوت بين النوع الإنساني وسائر الأنواع الحيوانية من حيث الأصل والتطور، وثانياً باكتشافات كوبيرنيكوس التي ألغت الاعتقاد بأن الأرض، موطن الإنسان، هي مركز الكون، مبرهنة على أن الكورة الأرضية ليست سوى جرم لا قيمة له بالمقارنة مع الأجرام السماوية الأخرى التي لا تعد ولا تحصى، وثالثاً بواقعه اكتشاف اللاوعي التي جردت الإنسان من اعتزازه بقدراته التفكيرية، إذ تبيّن، على ضوء هذا الاكتشاف، ان غالبية الأفكار التي تتكون في الوعي، وغالبية التصرفات التي يقوم بها صاحب هذا الوعي، ليست سوى استجابات لدوافع غامضة، تتبع من بؤرة الغرائز ومن الحركة البيولوجية المبهمة.

موجز الفهم الماركي للأفكار التي تتجلى في الوعي، أي للإيديولوجيا من حيث هي بنية فوقية، هو أنها مجموعة التصورات التي يكونها الناس عن علاقتهم بأوضاعهم الوجودية: الثقافة، وطريقة العيش، والآفكار، والقيم، والأذواق، الواقعية منها والغافلة، سواء على الصعيد الفردي أو الطبقي أو الجماعي.

لقد عمد ماركس، كما هو معروف، الى قلب جدلية هيغل رأساً على عقب. هذا ما أكده الجلز بقوله: «لقد نسبت جدلية هيغل على قدميها بعد أن كانت عنده واقفة على رأسها، ورجلها الى فوق»<sup>(٨)</sup>. كان ماركس قد ورث عن هيغل فكرة العلاقة الجدلية بين المادة والفكر. لكنه أجرى تعديلاً تصحيحاً هاماً على المفهوم الهيغلي لهذه العلاقة: لقد نسب الاولوية الى المادة، الى الواقع. وهناك ما كتبه الجلز بهذاخصوص:

«يعتبر هيغل ان الأفكار التي تحصل في الوعي ليست انعكاسات الاشياء والاحداث الواقعية... بل هي اسبق من هذه الانعكاسات»<sup>(٩)</sup>.

لكن ماركس والجلز يعتبران أن:

«الافكار الحاصلة في الوعي هي انعكاسات الاشياء والاحداث الواقعية. هكذا تصبح جدلية الادراك وعيَا لحركة العالم الواقعية الجدلية. وتتنقلب جدلية هيغل رأساً على عقب»<sup>(١٠)</sup>. وهكذا يندو هيغل وجميع الذين يسررون التاريخ على انه صراع بين الافكار، ايديولوجيين؛ فهم يتبعون في ضباب النظريات التأملية. وخلافاً لذلك فإن ماركس بدل أن يعتبر أن الافكار هي التي تخلق الشروط المادية للوجود، يرى ان الاوضاع المادية في الحياة هي التي تخلق الافكار، أي أن محتوى الوعي ليس سوى بنية فوقية ناجمة عن الوضع المادي الواقعى، ليس سوى ايديولوجيا.

تلك هي الاطروحة الاساسية لنظرية المادية التاريخية. وقد وردت في الكتابات الماركية عن هذه الاطروحة صيغ تعبيرية عديدة، نكتفي بايراد بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

«إن التشكّلات المهمة الحاصلة في أذهان الناس هي بالضرورة ملتحق لسيروراهم الحياتية الواقعية التي يمكن ادراها واقعياً والتي ترتبط بحالات مادية عينية. فالأخلاق والدين والميتافيزيق وسائر تجليات الايديولوجيا، وكذلك أشكال الوعي المقابلة لها، لا تقدر، اذن، ان تحافظ على مظهرها الاستقلالي لمدة أطول (...). ليس الوعي هو الذي يكيف الحياة، اغا الحياة هي التي تكيف الوعي»<sup>(١١)</sup>.

ليس الايديولوجيا، بمفهوم ماركس والجلز، اذن، وعيَا زائفاً فحسب، بل أنها تستلزم من يعتنقها وهذا ضعيفاً حول الاسباب التي تكيف حياته: فهو يظن انه يقرر موافقه انطلاقاً من الوعي وحده، بينما هو، شأنه شأن الآخرين، منقاد للمصالح المادية، وليس انشاءاته النظرية الواقعية سوى «لافقة معدّة لتغطية البضاعة» كما يقول ج. مونرو. وثمة نص واضح جداً كتبه الجلز يحدد فيه مفهوم الزيف الذي تراه الماركية في الايديولوجيا، يقول:

«الايديولوجيا هي عملية يقوم بها الفكر المزعوم بوعي أكيد، لكن بوعي زائف، فالقوى الحركة التي

---

تدفعه تبقى مجهولة منه، وإنما كان ثمة سيرورة ذهنية، فهو يصف مضمونها كما يصف شكل الفكر المحس، سواء فكره الخاص أم فكر سابقه. إنه يعمل معتمداً على التوثيق الفكري وحده، إذ يتناوله دون أن ينبع فيه النظر ليري ما إذا كان ينتهي من الفكر، ودون أن يدرسه أكثر على صعيد سيرورة «بعد مستقلة عن الفكر»<sup>(١٢)</sup>.

وهناك نص آخر لأنجلز يضفي على الأيديولوجيا المعنى نفسه:

«تعني الأيديولوجيا مجموعة من الأفكار التي تحيا حياة مستقلة متقدمة فقط بقوانينها الخاصة. إن كون شرط الحياة المادية التي يحياها الناس الذين تتبع هذه السيرورة الأيديولوجية في أذهانهم، يقرر، في التحليل الأخير، مجرى هذه السيرورة، فهذه الواقعة تبقى مجهولة منهم كلّياً، والا ل كانت كل الأيديولوجيات زالت من الوجود»<sup>(١٣)</sup>.

يتضح من الاستشهدات السابقة أن الفهم الماركسي للأيديولوجيا يشدد على كونها وعيًا زائفًا. لكن كيف يتكون عنصر الزيف في الأيديولوجيا؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من استقراء ماركس بالذات:

«يؤول دور القوة المتمثلة في البرهنة على سيادة الفكر في التاريخ الى المجهودات الثلاثة الآتية: أولاً فصل الأفكار عن يسودون، لأسباب فطرية، كأفراد واقعين، وبفضل الشروط الفطرية التي ينبع بها هؤلاء الأفراد أنفسهم، وبالتالي، الاعتراف بسيطرة الأفكار، أو التوهمات، في التاريخ. ثانياً الإيمان بنسق تننظم فيه سيطرة هذه الأفكار، والبرهنة على رباط صوفي يربط بين الأفكار المتتالية، وذلك ممكّن عن طريق فهمها كتحديّدات ذاتية للتّصور.... ثالثاً لتجريد هذا التّصور الذي يجدّد نفسه بنفسه... من مظهره الصوفي الى شخص - وعي الذات - أو لكي يظهر واقعياً تماماً، نصنع منه سلسلة أشخاص يمثلون «التّصور» في التاريخ، أي «المفكرين» أو «الفلاسفة» الأيديولوجيين المعتبرين بدورهم كصانعين للتاريخ.... وهكذا، دفعة واحدة، تكون قد حذفت جميع عناصر التاريخ المادية»<sup>(١٤)</sup>.

خلاصة القول إن الماركسيّة تُرجع الوعي والشعور الى مؤثرات الاقتصاد، وهي مؤثرات يتنكّر لها الوعي غير النّقدي بالضرورة، لذلك فهو وعي زائف. فالانا (الذات)، في إطار القوام النفسي، والأيديولوجيا، في إطار البنية الاجتماعية، يقوم كل منها بالوظيفة نفسها، أي أن كلاً منها يعتبر نفسه منبعاً لا مصدراً. واستنبعاً لهذا الفهم يستخلص ماركس ما يلي:

«لا نستطيع الحكم على عصر من العصور بناء على وعيه لنفسه بأكثر ما نستطيع الحكم على فرد من الأفراد بناء على رأيه بنفسه. وحدها التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج تؤلف الاسباب الموجبة، أي القوى المقررة والخاسنة. ينبغي، إذن، تمييز هذه التناقضات الواقعية، كما يحلّلها العلم، عن

---

الأشكال الحقوقية والسياسية والدينية والنفية، والفلسفية، وباختصار عن الأشكال الأيديولوجية التي يعي الناس بها هذه التنازعات، ويقودنا العلم الى منهاها».

صحيح ان العلم يؤلف نطاً من النشاط الفكري المستقل عن الايديولوجيا، لكنه لا يلغيها: لقد استمر الناس، بعد كوبيرنيكوس يرون الشمس تدور حول «الارض الثابتة». وهم يواصلون بعد فرويد تجاهل اللاوعي. وبعد ماركس يستمرون في العيش من خلال منظور درايتهم وحاجاتهم واهوائهم، أي تبعاً للنمط الايديولوجي. هذه الواقعة، (أي أن التوجهات المعاشرة لدى البشر تستمر تبعاً للنمط الايديولوجي) تبقى صحيحة حتى وإن زالت الطبقات، وانتفت ضرورة تبرير امتيازات الطبقة المسيطرة. أي ان الخداع الذي يرافق النمط الايديولوجي ليس ناجماً عن قرار مدروس تصدره الطبقة المسيطرة عن سابق قصد وتصميم، هادفة منه الى فرض سيطرتها، بل لأن كل نظام اجتماعي يفرض تصوراً يتبع دعومته، وبالتالي يدعم سلطان الطبقة الموجّهة. ان «الايديولوجيا السائدة هي ايديولوجيا الطبقة المسيطرة» على حد قول ماركس. لا ينشأ الوعي الظبقي عن خيار حرّ تقوم به كل طبقة اجتماعية. بل ان كل طبقة، تبعاً لموقعها ووظيفتها ومصالحها، تعيش بایديولوجيا خاصة، وتشترك في تشكيل ايديولوجيا النظام. قد لا يشعر المجتمع الظبقي بضرورة التحكم على انانية الطبقة الحاكمة، لكنه مع ذلك لا يجعل التاريخ شفافاً بالنسبة الى الانسان، أي لا يتيح للإنسان أن يفهم ان القوى المحركة هي المعطيات الموضوعية، لا محتويات الوعي، لأن القوانين الذاتية تستمر في تقييم عملية الاقتصاد، أي تجعل الوعي يعتقد بأنه هو المحرك الموجّه، هو وحده صاحب المبادرة الخلاقة، وان الواقع مجرد من مجموعة من المعطيات المنفعلة. السبب الاساسي في ذلك هو كون الادراك يطال الظاهرات، لا العلاقات التي تؤلف جوهرها الواقعي.

والسؤال الآن: كيف اختزلت كلمة ايديولوجيا الى واحد من معانيها فقط؟ من المعروف أن ما من كلمة تستلزم معيناً معيناً استلزمـاً جوهرياً، بل تستبدل المعنى تبعاً للاستعمالات التي تدرج فيها. فبقدر ما يتكرّر استعمال احدى الكلمات بمعنى معين، تزداد المطابقة بينها وبينه، حتى تقتصر دلالتها عليه وحده. يصف ماكس فيبر هذه العملية الاقتصادية التي تحصل للكلمات كما يأقى:

« يتم الحصول على نمذج معنوي (نسبة الى معنى) بعامل التأكيد الاحادي على احدى وجهات النظر، أو عدد منها، والربط بين عدد من الظاهرات الواقعية المنعزلة، الضمنية، المكتومة، الكثيرة حيناً والقليلة حيناً آخر، بل غير الموجودة في بعض الحالات. ثم تُنسق تبعاً لوجهة النظر الاحادية التي اعتمدت، فيُصار الى تشكيل مقولـة متجانسة»<sup>(١٥)</sup>.

هذا ما حدث بالضبط للمعاني المختلفة التي يحدـر بكلمة ايديولوجيا ان تعبر عنها أي أن كلا من هذه

---

المعاني أخذ من جانب واحد، ثم رُبّطت هذه الجوانب المتقاربة، فتشكلَّ من مجموعها، بهذا الاسلوب الاعتباطي، أو على الاقل الاصطلاحي، نسق منسجم، هو المفهوم الازدرازي لكلمة ايديولوجيا.

من الصعب معرفة ما اذا كان فلاسفة وعلماء الاجتماع الذين جاءوا بعد انتشار الفكر الماركسي، والتزموا بالمفهوم المذكور، فعلوا ذلك اقتناعاً منهم بأن ظاهرة الايديولوجيا ككل اما تقوم فقط على ذلك «الوعي الزائف» الذي تضنه الماركسية في جوهر الايديولوجيا، أو انهم ركزوا على الجانب الزائف من الايديولوجيا تخلياً لقطع الطريق على العواقب المترتبة عليه تجاه السيرورات الاجتماعية. الامر الاكيد هو أن التعريفات التي اعطوها عن الايديولوجيا تردد، اجمالاً، تيار المفهوم الماركسي. وإثباتاً لذلك نورد، تباعاً، آراء خمسة من كبار المفكرين الذين بحثوا مسألة الايديولوجيا:

«الايديولوجيا هي منظومة (نسق من التفكير ذي المطلق والمنهج الخاصين) من التصورات (أي الصور والاساطير والافكار أو المفاهيم، بحسب الحالات) تتمتع بوجود ودور تارخيين داخل مجتمع ما. ومن دون التعرض لمسألة العلاقة التي تربط احد العلوم باضيه (الايديولوجي)، يحق لنا القول ان الايديولوجيا، كمنظومة من التصورات تميز عن العلم، بأن الوظيفة العملية الاجتماعية فيها تتفوق الوظيفة النظرية» (لويس التوسر: من أجل ماركس).

«عني بكلمة ايديولوجيا تلك التفسيرات التي تُعطي عن الوضع والتي لا تتأتى من الاختبار الواقعي، بل من نوع من المعرفة المشوهة، من تلك التي تستعمل للتستر على الوضع الواقعي وتفعل في المرء فعل الاوهام» (كارل مانهايم).

«تقوم الايديولوجيا بوظيفة التوجيهات في العمل الفردي والجماعي» (ماكس رودنسون: السوسيولوجيا الماركسيّة والايديولوجيا الماركسيّة).

«الايديولوجيا فكر مثقل بالشعور حيث كل من هذين العنصرين يفسد الآخر» (ج. مونرو: سوسيولوجيا الشيوعية).

«الايديولوجيا هي تركيب من الافكار ومن التصورات التي تبدو بنظر صاحبها بثابة تفسير للعالم، او لوصفه الخاص، يمثل الحقيقة المطلقة، لكن بشكل وهم يرّز به نفسه، وينطيها، ويهرب في ظله، بطريقة او بأخرى، تبعاً لما يقتضي صالحه. إن ادراك ايديولوجية فكر ما يعادل الكشف عن الضلال، ونزع القناع عن وجه الشرّ ووصمه بأنه ايديولوجيا، أي إدانته بأنه كاذب ومزدوج: الامر الذي يؤلف اعنف هجوم عليه» (كارل ياسبرس: أصل التاريخ ومعناه).

ثمة سؤال ملحاح يطرح نفسه بنفسه حيال الفهم الماركسي الايديولوجي: اذا كانت الماركسية تعتبر كل

---

ايديولوجيا بناء فوقاً يعكس الواقع ليس إلا - الأمر الذي يجعل من هذا البناء الفوقي وعيًا زائفاً حال اعتقاده كأفعال تاريخي - فكيف تُقيم الماركسية مجموعة المبادئ الماركسيّة نفسها التي تستخدمها الحركات الآخنة بها؟ أي كيف تُقيم «الايديولوجيا الماركسيّة» بالذات التي يستخدمها عقائديوها واحزابها بثابة أداة العمل الاجتماعي الوحيدة الجدية؟ لا أحد يجهل ان المفكرين الماركسيين يرفضون، عادة، أن تُسمى الماركسية ايديولوجيا، ويصرّون على القول بأنّها علم. لكن هل تتوافق خصائص العلم، بالفهم الحقيقي للكلمة، مع الطابع العقائدي، التنظيمي النضالي، الالتزامي، الذي تتصف به الافكار الماركسيّة؟

على كل حال، ربما نتلمس بعض المواب على هذا السؤال البديهي من خلال ما جاء في (الموسوعة الفلسفية السوفياتية):

«الايديولوجيا هي نسق من الآراء والافكار: السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية. والايديولوجيا جزء من البناء الفوقي، وهي بهذه الصفة تعكس في النهاية العلاقات الاقتصادية. ففي مجتمع منطبقات المتباينة يتطابق الصراع الايديولوجي مع الصراع الطبقي. وقد تكون الايديولوجيا علمية، وقد تكون غير علمية: اي قد تكون انعكاساً صادقاً او زائفاً للواقع. فمصالح الطبقات الرجعية تغدو ايديولوجيا زائفة، بينما مصالح الطبقات التقدمية الثورية تساعد على تشكيل ايديولوجيا علمية. والماركسيّة اللينينية ايديولوجيا علمية حقاً، تعبّر عن المصالح الحيوية للطبقة العاملة والأغلبية الساحقة من الإنسانية المكافحة من أجل السلام والحرية والتقدم (...). فإن الاستقلال النسي للايدиولوجيا يظهر بصورة أوضح في عمل القوانين الداخلية للتطور الايديولوجي، وهي قوانين لا يمكن ردها مباشرة إلى علم الاقتصاد في المجالات الايديولوجية الاكثر بعداً عن الاساس الاقتصادي. وتفسّر الاستقلال النسي للايدиولوجيا حقيقة ان التطور الايديولوجي يتآثر، بطريقة غير مباشرة، بعدد من العوامل التي تتجاوز النطاق الاقتصادي: الاستمرارية الداخلية في تطور الايديولوجيا والدور الشخصي للايديولوجيين الأفراد، والتأثير المتبادل للأشكال المختلفة للايدиولوجيا»<sup>(١٦)</sup>.

إن هذا الموقف الاجياني، نسبياً، من الايديولوجيا، والتعارض الى حد ما مع آراء مؤسسي الماركسية، ليس بدعة في الفكر الماركسي، اذ سبق أن اخذ لينين نفسه موقفاً مشابهاً. وبيدو لينين وكأنه يعترض على الإدانة القاطعة التي اصدرها ماركس والجلز بحق الايديولوجيا، ويعيد الاعتبار الى هذه الظاهرة، فلقد قال: «دون نظرية ثورية لا يمكن قيام حركة ثورية»<sup>(١٧)</sup>.

ونعد الاشارة الى ان مفهوم «النظرية الثورية» مرادف لمفهوم الايديولوجيا. بل ان معارضه لينين للموقف الماركسي المبدئي من الايديولوجيا تستند الى اساس وضعه ماركس نفسه، وعبر عنه في الاطروحة الاخيرة من أطروحاته حول فويرباخ حيث يقول:

لم يفعل الفلاسفة سوى تقديم تفسيرات مختلفة عن العالم، لكن المطلوب هو تبديله». نستخلص مما سبق أن الماركسية اللينينية ليست فلسفه بالمعنى الكلاسيكي، أي النظري، للكلمة، بل هي اداة عمل تاريخي تغييري، وهي بالتالي ايديولوجيا.

### مثال الفكر الایدیولوچی

تمثل الایدیولوچیا، في ما تمثل، حالة التمحور الذاتي، أي تلك النزعة التي تتراءى فيها لأحدى الجماعات صوابيةً مقتضياتها، وبالتالي لا صوابية آية مقتضيات مخالفة. يتّأثر محدود هذه النزعة من تجسّد هذا الجانب الذاتي بحزبه، أي بجماعة متراصّة قائمة داخل متهدّيضم جماعات أخرى. اذ ذاك يجلّ التمحور الذاتي الخاص بهذه الجماعة، المتراصّة حتى الانفلاق، محل التمحور الذاتي الاجتماعي، ويستشرى لدرجة انه يفرض نفسه على كامل المجتمع. وقد يتسع أحياناً حيز عاهة التمحور الذاتي الایدیولوچی ليشمل متعددأً قومياً بأكمله، فيتحول هذا المجتمع الى اراده طاغية على صعيد التعايش الدولي، الامر الذي يقود الى حروب الفخر الحضاري المتمثلة بالغزوّات العنصرية او الدينية. ذلك ان الایدیولوچیا، بسبب من هذا المنصر الاعقلاني، أي التمحور الذاتي الصادّ الذي يلازم بعض اغاظتها، تلقى تربة خصبة لدى الجماعات الهاشمية المنغلقة القائمة، بعوامل تاريخية معقدة، ضمن المتحدّات المجتمعية، فتؤدي الى تفكّيك الوحدة الاجتماعية الحاصلة، او الى عرقلتها وهي في طريق التشكّل. وما الحروب الاهلية ذات التوابض المذهبية او الاثنية الثقافية، سوى أحد تجلّيات هذه العاهة الماثلة في الایدیولوچیا، اعني التمحور الذاتي الفئوي.

ثمة عاهة أخرى تلزم بعض اغاظط الایدیولوچیا فتحوّلها الى ما يسمى وعيًا زائفًا. تمثل هذه العاهة بمقولة «التطبيع» التي تُنسب الى الطبيعة احدى الحالات الوجودية ذات الاصل الاجتماعي التارخي، وبالتالي العبرة.. ان الزيف الناجم عن المقوله الایدیولوچیة التطبيعية يتّأثر من كون هذا الصنف من الایدیولوچیات يأخذ قوانين احدى الحالات الاجتماعية المبنية على علاقات بينذاتية تاريخية، اذن نسبية، لقوانين طبيعية، أي فوق - تاريخية، من ذلك القول مثلاً بأن العرق الزنجي تعتبره دونية ذهنية تكوينية، علمًا بأن مثل هذا التبني الذهني، في حال وجوده، يرجع الى كونه نتاجاً تارخياً لاوضاعهم الاجتماعية.

هناك نظر آخر من اغاظط الایدیولوچیا ينطوي على عاهة الاطلاقية. إن ایدیولوچیا من هذا النوع اذ تأخذ بفكرة ثبتت لديها في ظرف من الظروف تطلق هذه الفكرة، أي تعتبرها فوق زمنية، ولا تعود تخضعها للنقد، أي أنها تضعها خارج السيرة الجدلية للتاريخ. لكن بما أن التاريخ الاجتماعي تفاعلي، وبالتالي جدي، أي متبدل بجهة التحول، تصبح الفكرة المطلقة جامدة، وبالتالي مغلوطة، فتؤدي الى

نشوء الوعي الزائف. ان هذه التزعة الاطلاقية التي تتعور بعض انماط الايديولوجيا مخلفة موقفاً متعالياً بالنسبة الى الزمان، غالباً ما تفضي الى عملية عكس الزمان. فيصبح الآخرون بهذه الايديولوجيا يفهمون امور الماضي انطلاقاً من واقعات الحاضر، أو، وذاك هو الادهى، يفسرون واقعات الحاضر تفسيراً قصدياً، أي بالتوافق، او بالتعارض، مع ما يرون انه سيتحقق في المستقبل. خلاصة القول أن الايديولوجيا المصابة بعاهة الاطلاقية تسحب الرؤية المستقبلية على الحاضر وتحاكم مجرياته بمقتضيات هذه الرؤية. مثل ذلك صاحب الايديولوجيا الوحدوية في أمة مجزأة يقاضي معاصريه الذين يعيشون حالة التجزئة، على مواقفهم غير المنسجمة مع الوحدة التي تقوم في رؤياه ولكنها ليست مائلة في واقعهم.

ربما يكون المأخذ الاهم على الايديولوجيات، والذي جعل الفلسفى شديد التحفظ حيالها، وحرّضه على وصمها بالوعي الزائف، هو الآتية: الايديولوجيا تصور منظومي، أو شبه منظومي، لمجموعة من الحلول النسقة المقترحة كعلاج لمشاكل احدى الجماعات، أو أحد المجتمعات. لكن ثمة ثغرتين تتعوران هنا التصور: الاولى الاّ يكون الادراك قد تمكن، فعلاً، من تعين المشاكل الواقعية الحقيقية. والثانية الاّ يعي الآخرون بالمنظومة الايديولوجية كون الحلول التي يقدمونها هي حلول مرحلية، اذ ان التاريخ لن يتوقف عندما تُلقي بعض مشاكله حلولاً لها، بل ستنشأ فيه مشاكل جديدة تستلزم حلولاً غير مرصودة في المنظومة الايديولوجية الراهنة. هاتان الثغرتان اللتان تلزمان انماطاً كثيرة من الايديولوجيات وتجعلانها مغلقة، وبالتالي موصومة بالوعي الزائف، لا يمكن تفاديها الا بالتفكير التفاعلي.

بتعبير آخر، يؤخذ على بعض الايديولوجيات كونها تغالي في الایان بقدرة الفكر على استيعاب الواقع، اي بشفافية الواقع بالنسبة الى الفكر. والحال ان الخبرة العميقية المتكونة عبر تاريخ الفلسفات الاجتماعية، أي المستخلصة من تجارب الايديولوجيات، تشير الى ان الواقع لا ينضب، ولا يمكن استنفاد مكنوناته، الامر الذي يبرهن على أن كل وعي هو وعي مؤقت، لأن الواقع ليس معطى جامداً محدوداً، عبر ذاته، بل ديناميكي البنية من طبعه، لا سيما الواقع الاجتماعي الذي يتخصص بتفاعلاته مع الفكر. فمقولة «التطبيق العملي» (البراكيسي) التي بلوغها ماركس، اغا هي اداة وضعفت لواجهة هذا المزلق بالذات. لقد عبر ماركس عن ضرورة البراكسي斯 بقوله:

«هل يستطيع الفكر الانساني ان يصل الى حقيقة موضوعية؟ ان مسألة معرفة ذلك ليست مسألة نظرية، بل هي مسألة عملية. وفي الممارسة وحدها يجب على الانسان ان يثبت حقيقة فكرته وقوتها وواقعيتها الارضية»<sup>(١٨)</sup>.

لقد شرح روحيه غارودي بوضوح مرئى هذه الاطروحة بقوله:

«ان اللحظة المادية في المعرفة، في رأي ماركس ولينين، يسيطر عليها معيار الممارسة، معيار التحقق التجربى من فرضياتنا، من غاذجنا، ذلك المعيار الوحيد الذى يستطيع ان يضمن لنا، آخر الامر، أن بناءنا المفهومي يقابل واقعاً موضوعياً»<sup>(١٩)</sup>.

من المآخذ الفلسفية على الايديولوجيا ان البعض منها المعن فى الذاتية، يقع عادة، فريسة الاختلاط بين مقتضيات الفكر ومقتضيات الشعور، فتaci المنظومة، أو شبه المنظومة، العقائدية بثابة بنية فوقية مشوبة بالاستعاضة الوهمية. هذا المآخذ هو ما شدد عليه ج. مونرو بقوله:

«الايديولوجيا عرض ذهنى يلى طلباً شعورياً. كل شيء يجري كما لو ان الايديولوجيا «مصنوعة» سلفاً لتلبية بعض الحاجات الاجتماعية، أي البينذاتية، كما هو شأن المنتوجات الصناعية، التي تلى بعض الحاجات الاقتصادية»<sup>(٢٠)</sup>. وبالمعنى نفسه يضيف مونرو:

«الايديولوجيا هي (...) المعادل الوظيفي للاسطورة»<sup>(٢١)</sup>.

تمثل الايديولوجيات، او بالاحرى الانماط الثانوية منها، تلك التي لم تحظ بفرص تطبيقية جدية ولم تتبلور عبر ممارسة كافية، احدى مثالب الفلسفات الدغماتية، أعني النزعة الوثوقية. فهي تطرح نفسها كنظرة شاملة الى الحياة، مع انها غالباً ما تكون مجموعة من الأفكار غير الممحضة نقدياً، ومشوبة بقسط لا يأس به من المخواة الذاتية، ومن تحليات الرغائب. هذه الناحية من الايديولوجيا هي التي قصدها ج. مونرو بقوله:

«نسبة الايديولوجيا الى الفلسفة مشابهة للنسبة التي بين التبسيط العلمي والعلم. غالباً ما تكون صورة العلم المرتسمة من خلال التبسيط العلمي مختلفة لصورته الحقيقة، ومع ذلك فالتبسيط العلمي مدين بوجوده للعلم الحقيقى»<sup>(٢٢)</sup>.

ويضيف مونرو حول الفكرة نفسها:

«اذا قلت لأحد الايديولوجيين اليوم انه ايديولوجي يشعر بالانزعاج. فهو يؤكّد انه يتكلم باسم العلم، لا باسم اعتقاد ما. بالنسبة اليه الاعتقاد هو الاعلام. خلاصة القول ان الايديولوجيا تتصف بالشعور الوثوقي»<sup>(٢٣)</sup>.

إن ادھى ما يتربص بالفكر الايديولوجي هو خطر الاكتفاء بقوام فكري تقريبي، أي بفلسفة غير متبينة متأنة كافية من الناحية العقلانية النقدية. هذه الثغرة المفتوحة دائماً، تقريباً، في جدار الايديولوجيات، والتي يتسرّب عبرها الى داخل البناء العقائدي ضباب الوعي الزائف، هي التي أشار اليها ج. مونرو بقوله:

«الايديولوجيات تحالف الفلسفات، فهي تصاغ انطلاقاً من فلسفات أعمق اخضعت للتعديل بهدف تلبية حاجات شعورية، وكيفت بصورة اعتباطية تبعاً لقتضى تقلبات بورصات السياسة اليومية (...). ان احدى الصفات الاساسية لايديولوجيا هي انها صالحة للاستعمال (...) فالايديولوجيات، بفضل انتاجها بالذات، مرشحة، منذ ولادتها، لتمثل دور اللافتة التي تنطوي البضاعة»<sup>(٢٤)</sup>.

ثمة مأخذ تنظيمي - اعني على صعيد الممارسة العلمية - يجعل الحكم الفلسفى على الايديولوجيا يميل لنغير صالحها. يتمثل هذا المأخذ في كون الايديولوجيا، كعقيدة نضالية ملتزمة، تحول الى سلاح ضاغط يوضع في حوزة مجازبها من عامة الناس. وبما ان الجمهور الحزبي المتادل غير قادر، بسبب من صفتة الجماهيرية من جهة، وبسبب من الضعف النسي في مستوى الوعي لدى افراده من جهة اخرى، على تمثيل دقائق الايديولوجيا المقاديمية التي أنيط بهم تحقيق ايجابياتها، فإن هذا الجمهور ينزلق الى ممارسات منحرفة، وضارة، ويتحول الى عامل سيطرة استبدادية تتيح لبعض الاتهازين، من يحسنون سبل التسلل الى قيادة الحركة الايديولوجية ان يقيموا دكتاتورية فردية تحت ستار مقتضيات العقيدة. والامثلة على هذا الطراز من الانحرافات كثيرة جداً ومتوفرة في تاريخ غالبية الحركات الايديولوجية التي عرفها العالم، ان لم نقل جميعها.

### صوابية الفكر الايديولوجي

لو اقتصرت الادانة الفلسفية على الفكر الايديولوجي المتصنم، أي الذي يضفي طابع القدسية على منظورات متجمدة خارج حركة التفاعل بين الفكر وحاجات الحياة الواقعية، لا اعترض احد عليها. ولو اقتصرت ايضاً على التشهير بالايديولوجيات التبريرية المنحازة التي تدافع عن أوضاع فتوية تستمد قواها من تفتيت وحدة الحياة الاجتماعية ومن تعطيل غوها وترقيها، لما كان ثمة مجال لمناقشتها في ما تفعل. بل لو اكتفى الفكر النقي بالتصدي لايديولوجيات الطوباوية التي تضحي بالملكتسات الواقعية المتوفرة في حياة المجتمع سعياً الى سراب الرؤى المثالبة الزائفة، لكان من حق هذا الفكر النقي على كل مفكر متزو ان يناصره. أما وأن يتخد النقد الفلسفى نظامية تقضى بمحاجة كل موقف فكري يتسم بصفة عقائدية، أي يؤمن بقدرة الفكر على ادراك حقائق موضوعية سالبة ينبغي ازالتها، أو اخرى موجبة جديرة بأن يعمل الناس على تجسيدها في حياتهم، ويتحقق بفاعليته على صعيد الواقع الموضوعي، وبأولوية دوره في عملية خلق شروط حياة أمثل، فهذا الموقف الذي يتخذه النقد الفلسفى ينطوي على تحزن من أخفّ محاذيره انه يؤدي الى العبئية، توأم اللاعقلانية.

ترعم الفلسفة انها ليست ايديولوجيا. لكن ما ينبغي التنبه اليه هنا، هو ان غالبية الفلسفات تتصرف بالوثوقية، علماً بأن الوثوقية تشكل الخاصة الجوهرية لايديولوجيا. ثمة شرط اساسي ينبغي توفره في كل

---

نشاط فكري يطمح الى أن يكون فلسفياً صرفاً، وهو الشرط الذي شدد عليه الدكتور ناصيف نصار في معرض التفريق بين الفكر الفلسفى والفكر الايديولوجي حيث يقول:

«يرتقي (الfilisوف) بفكرة الى صعيد الانسان بما هو انسان، ويحاول تعقل الوجود الانساني، او الوضع الانساني في أشكاله وابعاده الاساسية، متتجاوزاً اعراض وخصوصيات الجماعات والمجتمعات المحيطة به او البعيدة عنه، ساعياً الى القبض على الكنه الذي في الظواهر والتحولات»<sup>(٢٥)</sup>. وتوكياً للدقة، نذكر بأن مقصودنا هنا بكلمة فلسفة، هو الفلسفة بمنحاها الاجتماعى، لا بمناخيها الأخرى مثل الانطولوجيا او الاستيمولوجيا أو المناقبية، وذلك انطلاقاً من مسألة الايديولوجيا، المفهومة على أنها فكر ملتزم بقضايا الحياة الاجتماعية. والحال انه ما من فلسفة اجتماعية الا وتفرض اولويات معينة، وتقترح خيارات محددة، وتوصي بمناهج واضحة. فما الذي يميز اذن بينها وبين الايديولوجيات؟ إن كل فلسفة اجتماعية متبلورة تتجسد في عقيدة، وكل ايديولوجيا هي عقيدة تشكل دليلاً في العمل الاجتماعى.

يقال ان الفلسفة نشاط عقلي يهدف الى بلوغ الحقيقة النظرية، الحقيقة في ذاتها. وعند مناقشة هذا الرأى تبرز الملاحظات الآتية:

أولاً: القدرة النظرية في المعرفة منها كانت عقلانية، تبقى متسمة باسمة الذات «الناظرة»، أي مطبوعة بخصائص الانسان الذي يستعمل عقله. وبما أن العقل هو احدى القدرات العضوية للذات، لا يمكنه إلا ان يتاثر بتكوينات هذه الذات التي تؤلف قاعدته وتمده بالطاقة التي يستعملها في نشاطه. أي ان اوضاع الذات، كالمزاج، وتكوينات اللاوعي، والدربات الذهنية من ثقافية وتربيوية الخ... جميعها عناصر تشكل الشروط التي يعمل العقل من خلالها، ولا يستطيع ان ينشط بعزل عنها كلياً. بهذا المعنى ينحى القول بأن الفكر، منها حاول ان يكون عقلانياً وحرراً، لا يستطيع الا أن يعمل ضمن دائرة محدودة الحرية، ويكون عمله ضمنها مشروطاً بمؤثرات معطاة.

ثانياً: لم يثبت وجود معرفة لذاتها، أي معرفة للمعرفة، لا سيما في المضمار الاجتماعي حيث تنشط الفلسفات الاجتماعية والايديولوجيات. كل النظريات القائلة بوجود معرفة اجتماعية تكتفي بذاتها، تنطوي على مطاعن وثغرات اكيدة. وبالتالي يستحيل الفصل بين النظر والعمل، بين المعرفة والمارسة، في الحيز الاجتماعي. بناء عليه، يمكن القول بأن الفلسفة الاجتماعية ليست سوى احدى مستويات الايديولوجيا.

ثالثاً: ان النقاش حول صوابية الايديولوجيا او بطلانها يرافق النقاش حول مطلقاً الحقيقة او نسبيتها قد لا يستدعي الامر استعادة عرض الدلائل على تحظّي الفلسفات بعضها بعضاً عبر التاريخ الطويل، مع ما رافق سلسلة التخطيطات هذه من حالات اقتئان وتصديق متواتلة لصالح النظريات

الفلسفية الجديدة، كل مرّة. بل ان المعرفة العلمية ذاتها، اذا ما استعرضناها تاريخياً، انكشف كونها سلسلة من النظريات المتنافية تباعاً. خلاصة القول ان الفكر الايديولوجي، اذا ما اعتبر ضمن حدود مراحله التاريخية، وأنصفت اخجازاته الواقعية، تجلت صوابيته، التسبيبة طبعاً، التي لا تقلّ البتة عن مثيلاتها في العلوم والفلسفات.

تأخذ بعض الفلسفات الجدلية على الايديولوجيا كونها تحطّىء اذ تنطلق من الفكر الى الواقع، أي تعتقد بإمكانية تكييف الواقع الاجتماعي التاريخي تبعاً لافتراضيات الوعي. ان هذا الرأي يستدعي بعض الملاحظات:

أولاً: ليست كل ايديولوجيا «ايديولوجيا» بمعنى الاذرائي الذي يضعها في خانة الوعي الزائف. هناك ايديولوجيات عقائدية مبنية على فهم تحليلي لواقع الحياة، مزودة بتصورات استعمالية برهنت على جدواها الفعلية في مجالات التطبيق.

ثانياً: اذا كان اكتشاف ظاهرة الجدلية (الدياليكتيك) قد أثبتت حقيقته الواقعية، فذلك لا يعني ان الجدلية تنطلق من أولوية الواقع، بالضرورة. لا أحد ينكر دور الافاعيل الاقتصادية والبيئية في تكيف حياة المجتمعات البشرية وتأثيرها على البنى الفوقية. لكن في المقابل، ثمة تفاعل بين الفكر والواقع لا ينكره الا صاحب ايديولوجيا زائفة معكوسه. وحري من يستقصي تفاصيل انعكاسات الواقعات الاقتصادية والبيئية ودقائقها على بنى الوعي، ان يأخذ بعين الاعتبار السيرورة المقابلة، أي أن يدرك مقدار خضوع الواقعات الموضوعية لميّنة الفكر، ومدى تكييفها بافتراضيات خياراته، لا بل تبعيتها، أحياناً، لنزواته. أن الموقف الاحادي الاتجاه الذي يعتبر الوعي مجرد ظاهرة عرضية يتراءى فيها واقع الحياة الموضوعي، بخطيء من حيث ينكر فاعلية الفكر، أن من حيث يتجاهل جدلية التفاعل بين الفكر والواقع. ولنا من تطور الماركسية بالذات، لا سيما من تطور فهمها لذاتها، بل من بعض تجليلاتها النظرية، ما يؤكد دور الفكر، واستطراداً دور النشاط الايديولوجي، في التأثير في الواقع الموضوعي وتبدلاته، الامر الذي لا يكتفي بالفأه استقلالية الافاعولة الاقتصادية بالنسبة الى الوعي فحسب، بل يلغى الاولوية النسبية الى هذه الافاعولة ويعودي الى ادراك التوازن التفاعلي بين عاملين الذاتية والموضوعية.

الادراك الفلسفى المعرفي عمل فردي في الاصل. أما الادراك الايديولوجي فإما ان يكون مجتمعياً أو لا يكون. أحياناً يتبنى عدد كبير من الناس غطاءً واحداً من أنماط الادراك الفلسفى المعرفي، لكن ذلك لا يجعل الفلسفة المعنية الى موقف فكري جاعي، بل تظل وحدة مواقف فردية. فالفلسفة، طالما هي فلسفة بمعنى المعرفى النظري، تتطلّب فردية. أما اذا تحولت الفلسفة الى عمل، أي اذا انشأت بناء قيمياً مؤسساً على منظومة معرفية فإنها تشكل عندئذ حركة نضالية تجهد لازالة القيم الحالية للقيم التي اختارتتها،

ولتحقيق هذه الأخيرة، اذ ذاك يصبح من نافلة القول التمييز بين الفلسفة والايديولوجيا. وحدها العملية التعسفية التي تحصر معنى الايديولوجيا بالمفهوم الازدرائي، وتحتلز الفكر النضالي الى حدود المشاعر التصصبية، تتجاهل المحتوى العقائدي الالتزامي الذي تميّز به الايديولوجيات الجدية. مثلاً على هذا النوع من الاصطلاحات المبتورة قول امانويل مونيه:

«الايديولوجيات هي تجريدات مجّدة ومبسطة معدّة للاستهلاك الواسع، وتعمل على قولبة الافكار من أجل مقاومة الخلق الروحي»<sup>(٢٦)</sup>.

من الطبيعي ان يتخد مونيه، الشخصاني النزعة، هذا الموقف المعارض لكل وعي ايديولوجي، ذلك لأن الفكر الايديولوجي اجتماعي من طبعه، يميل الى تغليب موقف المجتمع، أو الجماعة، على موقف الفرد، الامر الذي يتعارض مع الميل الشخصاني الذي يعتبر الفرد، او الشخص، مصدر القيم. ولا عجب ان نجد فلاسفة من أمثال مونيه، أي من يؤثرون الفردية، كالفيلسوف الفرنسي غرييل مارسيل، ينتقدون الايديولوجيا من الزاوية نفسها:

«تنزع الايديولوجيا من طبعها الى ان تصبح دعائية، اي عملية نقل آلي لصيغ مفخطة بشحنة هي، في جوهرها، شحنة حادة، ولا تجسّد الا وقت تمارس ضد فئة معينة من البشر: اليهود، المسيحيين الماسونيين، البورجوازيين... الخ...»<sup>(٢٧)</sup>.

إن غالبية التعريفات التي تعطى عن الايديولوجيا تشير الى انها «مجموعة المفاهيم التي تكونها جماعة من البشر عن اوضاعها في ظرف تاريخي معين»، واذا تجاوزنا الموقف الشككي المتمدد الذي يصف كل مجموعة مفاهيم تكونها جماعة بشرية عن اوضاعها في ظرف تاريخي معين بأنها زائفة بالضرورة، يصبح من حقنا القول ان الايديولوجيا ضرورية، اذ لا تستطيع اية جماعة ان تتطلق في مشروعات تطويرية ما لم تكن قد بنت تصوراً عن حاجاتها وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق ما يلبي هذه الحاجات، أي ما لم تكن قد أنشأت ايديولوجيا تسترشد بها في تحقيق مآربها. هذه التصورات عن الواقع، عن مصلحته وعن أسابيع تعرّفه وعن مرجعياته وعن طرق تحقيق هذه المرجعيات، يسمّيها البعض فلسفة اجتماعية. لكن الفلسفة الاجتماعية حين لا تعود تكتفي بالمعرفة النظرية، تحول الى حركة نضالية ملتزمة، وتتصبّح بالتالي ايديولوجيا. فسيرة التغيير - وكل عمل جماعي تاريخي هو تغيير - تستلزم نشاطاً عملياً، أي نضالاً يستوجب، بدوره، اندفاعاً ملتزماً. ولو تحول جميع افراد متعدد ما الى فلاسفة، يعني الفلسفة المكتفية بالمعرفة النظرية، لما امكنهم تغيير اوضاع متدهم، أي تجسيد الطاقات لتحقيق نظام قيمي أفضل. بل، وانطلاقاً من الفهم المعترف به للعلاقة بين النظر والعمل، لا مندوحة من شحن المعرفة النظرية بزخم ارادى وشعوري يجعلها فاعلة، أي لا بدّ من تحويلها الى هذا النمط من الفكر الملتزم والذي سمّيه

ايديولوجيا لتجسيدها في انجازات واقعية. بهذا المعنى تسقط مقوله زيف الايديولوجيا، اي مقوله اقتصار الايديولوجيا على الجانب الزائف من الفكر الملتزم، لتصبح الايديولوجيا وعيًّا حركاً للتاريخ.

### هوامش:

- ١ - نيشه: العلم الجزل، ص ٣٥٤.
- ٢ - دوثيراسي: مذكرة حول ملحة التفكير.
- ٣ - مان دوبيزان: الآثار الكاملة، الجزء الثالث، ص ١٣ - ١٤.
- ٤ - اميل دوركمام: قواعد النهج الاجتاعي، الطبعة الثامنة، ص ٢١.
- ٥ - فولكبيه: قاموس اللغة الفلسفية، طبعة ١٩٦٩، ص ٣٣٧.
- ٦ - مارسال: ذكره اندريه لالاند في القاموس التقني والتقدي للفلسفة، طبعة ١٩٧٦: ايديولوجيا.
- ٧ - فولكبيه: قاموس اللغة الفلسفية، طبعة ١٩٦٩، ص ٣٣٧.
- ٨ - ف. الجزر: لودفيغ فيورباخ، المنشورات الاشتراكية، طبعة ١٩٤٦ ، ص ٣٤.
- ٩ - ف. الجزر: الاشتراكية الوهمية والاشراكية العلمية.
- ١٠ - ف. الجزر: لودفيغ فيورباخ، ص ٣٨.
- ١١ - ك. ماركس: الايديولوجيا الالمانية، القسم الاول.
- ١٢ - ف. الجزر: رسالة مهرينغ، ١٤ نوز - يوليو - ١٨٩٣.
- ١٣ - ف. الجزر: لودفيغ فيورباخ.
- ١٤ - ك. ماركس: الايديولوجيا الالمانية.
- ١٥ - ماكس فيبر: محاولات حول نظرية العلم.
- ١٦ - الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء والاكاديميين السوفيات بابراف. م. روزنتال - و - ب. يودين، مادة: ايديولوجيا.
- ١٧ - لينين: ما العمل، الآثار الكاملة، الطبعة الروسية، المجلد الأول، ص ١٩١، موسكو ١٩٤٦.
- ١٨ - ك. ماركس: أطروحات عن فيورباخ، الأطروحة الثانية.
- ١٩ - ر. غارودي: ماركية القرن العشرين، ترجمة الحكيم، ص ٧٠، منشورات دار الآداب، بيروت ١٩٦٧.
- ٢٠ - ج. مونرو: الواقعات الاجتماعية ليست اشياء، ص ٢٠٨.
- ٢١ - المرجع المذكور، ص ٢١٠.
- ٢٢ - المرجع المذكور، ص ٢١١.
- ٢٣ - المرجع المذكور، ص ٢١٢.
- ٢٤ - المرجع المذكور، ص ٢١١ - ٢١٢.
- ٢٥ - ناصيف نصار: طريق الاستقلال الفلسفى، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية ايار - مايو ١٩٧٩.
- ٢٦ - امانويل مونيه: بيان الشخصية، ص ١١.
- ٢٧ - غرييل مارسيل: الناس ضد الانساني، ص ١٦٧.

مراجع اخرى:

باسيرس: أصل التاريخ و معناه.

---

مونزو: سوسيولوجيا الشيوعية.

مكسم رودنسون: الموسىولوجيا الماركية والآيديولوجيات الماركية.

اندريه لالاند: القاموس التقني والتقدى للفلسفة.

ديستون دوتراسي: مشروع عناصر الآيديولوجيا.

كارل ماهاب: *Digniosis of Our Time*